الخطاب الحجاجي في القرآن الكريم
سورة البقرة أنموذجاً

إعداد
د / بسمة مُحَمَّد بيومي
مدرس الأدب العربي الحديث
كلية البنات – جامعة عين شمس



مقدمة :

{ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ }(١) هكذا وبنص معجز وصف الله كتابه فجمع في ست كلمات بين المنزل – بكسر الزاي – عبر الإشارة بضمير "نا" مرتين المتناسب مع إثبات القدرة والاستعلاء والكبرياء لله تعإلى وبين المنزل– بالفتح – مرتين أيضا الأولى بضمير غائب عائد على "الكتاب المبين "بالآية السابقة والثانية حال " قرآنا" حال متسقة مع الغاية ، فالغاية هي التدبر والفهم والإقناع والاستدلال والبرهان والوسيلة المناسبة للوصول لهذه الغاية هي اللغة العربية التي نزل القرآن بها تحديا وإعجازا لأهل الفصاحة والبلاغة لتجبرهم ذائقتهم الجمالية وسليقتهم اللغوية على الاقتناع بكل ما جاء فيه فيستسلمون ويذعنون ويسلمون قيادهم لمنهج الله عز وجل.

" ... ، ولا يخلق على كثرة الرد ، ... " (٢) وهكذا وصف الرسول الكريم محمد ﷺ به كتاب الله العظيم ، وكأن الأصل في الخطاب القرآني السؤال والجواب ، والأخذ والرد ، والسبب والنتيجة ، والحجة والبرهان، والمنطق والقياس،فالله عز وجل على الرغم من قدرته وعظمته وجلاله يريد منا أن نستسلم له ونذعن ولكن غير مكرهين ،{ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ }(٣) ، ولذلك نجد القرآن الكريم يصل إلى هذا الهدف الرئيس والغاية الكبرى عبر طريقين أساسين :

أ– الخطاب العاطفي ب– الخطاب العقلي

ويتجلى الخطاب العاطفي في القرآن الكريم في مستويات لغوية متعددة، وأساليب مختلفة، وتقنيات متفردة، تفجر أنهارا من الأحاسيس والمشاعر المتباينة التي تتفاعل وتمتزج وتتصاعد حتى تصل بالمتلقي إلى الغاية المنشودة، ومن أبرز ما تجسد فيه الخطاب العاطفي في القرآن الكريم استجابة الكون الجماد لله تعإلى حين قالت السماء والأرض : { ثُمَّ اسْتَوَى إلى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ }(٤) .

أما الخطاب العقلي فهو الإطار العام الذي يحكم القرآن الكريم، فالنص الإلهي قائم على المنطق والحجة والبرهان ، يدعو للتفكر والتأمل والتدبر ،يضرب الأمثال ، ويقص القصص ، يحاور المتلقي الحاضر والغائب ، العالم والأمي ،الكبير والصغير ، الرجل والمرأة ، ليصلوا بأنفسهم إلى الإيمان واليقين، وقد تكررت بعض الكلمات أو التعبيرات الحاثة على إعمال العقل والمنطق فمثلا : ضرب الأمثال ٢٣ مرة ، " يعقلون " ٢٢ مرة ، " يتفكرون " ١١مرة ، "قل سيروا في الأرض ثم انظروا ، فانظروا "٤ مرات ، أولو الأبصار ٣ مرات ، "أولو النهى " مرتان ، ومن نماذج آيات الخطاب العقلي :

{ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ }(٥) ، { أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي النُّهَى }(٦) ، { يُقَلِّبُ اللهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِأُولِي الْأَبْصَارِ }(٧) ، { ... وَيَضْرِبُ اللهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ }(٨) .

ومنهج القرآن الكريم المراوحة بين الخطابين العقلي والعاطفي في قالب حجاجي يصل بالمتلقي إلى الغاية المنشودة " ومعنى الحجاج هنا هو توليفة العقل والخطاب التي تجمع بين البرهان العقلي والخطاب التأثيري ، وكاد جمع الخطاب القرآني بينهما أن يولد منطقا جديدا تتزاوج فيه الآليتان تزاوجا لا يبين جراءها هل نحن بصدد خطاب تستعذبه العقول أم بصدد حداء تستلذه القلوب؟ "(٩) .

تعريف الحجاج :

مدار الحجاج في اللغة على المخاصمة ومحاولة الاستدلال وإقامة البرهان على الطرف المقابل في هذه العلاقة الضدية فيقال : حاججته أحاجه حجاجا ومحاجة حتى حججته أي غلبته بالحجج التي أدليت بها ، والحجة البرهان ، والحجة ما دوفع به الخصم ، والتحاج: التخاصم(١٠) .

وفي كتاب التعريفات للشريف الجرجاني : الحجة ما دل به على صحة الدعوى ، وقيل الحجة والدليل واحد[١١] ، وفي أساس البلاغة للزمخشري :حجج : احتج على خصمه بحجة شهباء ،وبحجج شهب، وحاج خصمه فحجه ، وفلان خصمه محجوج [١٢] .

وأصل الحج هو القصد وكأن الحجاج هو آلية تحاورية عقلية لغوية بين طرفين مرسل محاجج –بالكسر–ومستقبل محاجج–بالفتح– يسعى فيها الطرف الأول إلى إقناع الطرف الثاني بما يريد مستخدما في ذلك وسائل عقلية متكئة على اللغة في الوصول إلى الغاية والقصد.

ويمثل الحجاج تراثا إنسانيا غنيا زاخرا منذ عهد السوفسطائيين واعتمادهم الكلام وسيلة إقناع تزينها غلالات من الخداع والتزييف وتهدف إلى اقتناع الطرف المقابل بعيدا عن دروب الحق والباطل، ومرورا بأفلاطون والذي فرق في محاوراته بين إقناع يعتمد العلم وإقناع يعتمد الظن، ثم أرسطو الذي يعد العمدة في عملية الحجاج ، وقد أكد في كتابه الخطابة على فاعلية الجدل في الخطابة لأن كليهما يتناول أمورا تدخل على نحو ما في نطاق معرفة الناس جميعا وليسا مقصورين على علم خاص بعينه [١٣].

وفي عام ١٩٥٨م ولد مصطلح البلاغة الجديدة على يد المفكر البلجيكي ليبرمان الذي حاول إعادة تأسيس البرهان أو المحاجة الاستدلالية كتقنية خاصة لدراسة المنطق التشريعي والقضائي ،وامتداداته إلى بقية مجالات الخطاب المعاصر [١٤] .

ويعرف الحجاج بأنه :" جنس خاص من الخطاب يبني على قضية أو فرضية خلافية يعرض فيها المتكلم دعواه مدعومة بالتبريرات عبر سلسلة من الأقوال المترابطة منطقيا ، قاصدا إقناع الآخر بصدق دعواه والتأثير في موقفه وسلوكه تجاه تلك القضية " [١٥] .

فغاية الحجاج هي إقناع الطرف المقابل عبر حيل منطقية ولغوية وبلاغية لها تقنياتها وآلياتها ، ويظل فارق دقيق بين الإقناع والحجاج يذكره د.عباس حشاني حيث يعود الفارق إلى طبيعة المتلقي "فإن كان المتكلم يخبره بكلام جديد فهو يقنع ،أما إن كان المتلقي رافضا أو منكرا للكلام فيتحول الخطاب من إقناعي إلى حجاجي [١٦].



الحجاج القرآني :

تفرد الحجاج القرآني بطبيعة خاصة من حيث المرسل والمستقبل والرسالة والسياق ، فمن حيث المرسل فالقرآن هو النص الوحيد الصحيح الحالي الصادر عن الله عز وجل فهو كلام الله تعالى وصفة من صفاته ، مما أكسب النص القرآني قدسية وجلالا وتنزيها وتفردا، ومن حيث المستقبل تفرد القرآن بأن له جمهورين – كما ذكر د.عبد الله صولة – فخطاب القرآن موجه إلى متلق فعلي وهو كل مستقبل للرسالة حاضر في زمان نزولها ومكانه ومتلق آخر مفترض هو الجمهور الكوني القائم في كل زمان ومكان يتوجه له خطاب القرآن بمفردات عصره هو وبوسائل الحجاج المناسبة لبيئته الزمانية والمكانية (١٧)، أما الرسالة فقد تخطت وظيفتها الأساسية في إفهام المستقبل فأصبح الخطاب القرآني:

مفهوما ← مؤثرا ← مقنعا ← مغيرا لعقيدة أو موروث أو سلوك

وكذلك السياق القرآني متفرد فقد تنزل في ثلاثة وعشرين عاما بين مكة والمدينة وما بينهما مرتبطا بأسباب نزول متباينة ، وتفردت آياته بالرسم العثماني ، وبالقراءات المختلفة وما تضمنته من وجوه نحوية وبلاغية وفقهية مختلفة جعلت من النص القرآني قراءة أو استماعا نصا معجزا من كافة جوانبه ، رسالته الأساس هي التحدي والإعجاز ليجبر الطرف الآخر – مختارا – على التسليم والإذعان ، ورغم كثافة آليات الحجاج وتنوعها وثرائها إلا أنها أتت في نسيج ضام متناغم متسق مترابط ، فيكاد يكون كله خطابا حجاجيا مكثفا يزداد فيه الحجاج وينقص، يعلو ويخفت ،يجهر ويهمس ، يشتد ويلين ، يربو ويقل ، حسب مقتضيات الخطاب لتصل بالمتلقي إلى بر التسليم المطلق ، وكما ذكر ابن الأثير : "مدار البلاغة كلها على استدراج الخصم إلى الإذعان والتسليم لأنه لا انتفاع بإيراد الألفاظ المليحة الرائقة ، ولا المعاني اللطيفة الدقيقة دون أن تكون مستجلبة لبلوغ غرض المخاطب بها "(١٨) .

ألفاظ الحجاج في القرآن الكريم :

ورد الحجاج في القرآن الكريم بلفظه ومعناه في عشرات المواضع ، فلفظ الحجاج ورد إحدى عشرة مرة في خمس سور :

١. { وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلى بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ }(١٩) .

٢. { قُلْ أَتُحَاجُّونَنَا فِي اللهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ } (٢٠).

٣. { أَلَمْ تَرَ إِلى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ }(٢١) .

٤. { فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَاللهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ } (٢٢) .

٥. { فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ }(٢٣).

٦. { يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنْزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ . هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَاللهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ }(٢٤) .



٧. { وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ الْهُدَى هُدَى اللهِ أَنْ يُؤْتَى أَحَدٌ مِثْلَ مَا أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ }(٢٥) .

٨. { وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ }(٢٦) .

٩. { وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِنَ النَّارِ }(٢٧) .

١٠. { وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ }(٢٨) .

وورد لفظ جادل بإضافاته إلى الضمائر المختلفة خمسا وعشرين مرة منها قوله تعالى : { هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ جَادَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَمَنْ يُجَادِلُ اللهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَمْ مَنْ يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا }(٢٩) ، ووردت مادة الخصومة في القرآن في خمس آيات منها قوله تعالى : { هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِنْ نَارٍ يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ }(٣٠) ، أما مادة المنازعة فقد وردت في ثمانية مواضع منها قوله تعالى : { فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى }(٣١) ، و لفظ الحوار تكرر في القرآن في ثلاثة مواضع منها قوله تعالى : { وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا }(٣٢) ، أما فعل الكلام نفسه : ق.و.ل "فتمثل مشتقات مادة (ق .و.ل) سواء كانت في

سياق الحكاية بالقول مجردا أو حكاية القول والرد عليه أعلى نسبة تواتر في القرآن الكريم حوالي (١٧٣٠) بعد نسبة التواتر الخاصة باسم الجلالة " [٣٣] .

وفي العقود الأخيرة وبعد تبلور مصطلح الحجاج ظهرت تطبيقات كثيرة لدراسته في النثر والشعر ، وكان من أهم الدراسات ما قام على دراسة الحجاج في القرآن الكريم ، سواء منها ما كان تطبيقيا على القرآن الكريم عامة أم ما اتخذ سورة كنموذج تطبيقي [٣٤]، وقد اخترت سورة البقرة كمضمار لدراسة الحجاج في القرآن لتنوع سياقاتها ، وثراء أساليبها ، وتضمنها لخطابات حجاجية واضحة جلية على مدار آياتها ، وسيجتهد البحث في إضاءة بعض جوانب الخطاب الحجاجي بسورة البقرة .

الحجاج في سورة البقرة :

سورة البقرة سورة مدنية ، من أوائل ما نزل على الرسول ﷺ بعد الهجرة ، والمرجح أن آياتها لم تنزل متوالية كلها حتى اكتملت قبل نزول آيات من سورة أخرى ، فمراجعة أسباب النزول تفيد أن السور المدنية الطوال لم تنزل آياتها كلها متوالية ، إنما كان يحدث أن تنزل آيات من سورة لاحقة قبل أن تستكمل سورة سابقة نزلت مقدماتها ، وأن المعول عليه في ترتيب السور هو سبق نزول أوائلها لا جميعها ، وفي سورة البقرة آخر ما نزل من القرآن بشأن أحكام الربا ، وفيها ما نزل بعد الهجرة في العام الأول من فرض الصيام الذي افتتحه المسلمون بشهر رمضان من السنة الثانية للهجرة [٣٥] .

١- الأحرف المقطعة:

تبدأ سورة البقرة بأحرف مقطعة ثلاث رسمها : الم ولفظها : ألف ..لام.. ميم بالتسكين ، والحروف المقطعة بدأت بها تسع وعشرون سورة وعددها أربعة عشر حرفا نصف الحروف الهجائية، وهي : الألف (دون مد) ، وحي طهر (بمد حركتين)، ونقص

عسلكم (بمد ست حركات عدا العين لأن الياء فيها حرف لين وليس حرف مد ففيها الوجهان أربع حركات أو ست حركات) ، ولكتب التفاسير مع الحروف المقطعة وجوه مختلفة وتفسيرات متعددة إلا أن من الوجوه الراجحة التي تكررت في أغلب التفاسير الوجه الحجاجي فورود هذه الأحرف في مطالع السور وبهذه الكيفية من الرسم واللفظ هو للتحدي وإعجاز العرب أهل الفصاحة وأرباب البلاغة ، فالقرآن الكريم مؤلف من جنس هذه الأحرف وهي في متناول المخاطبين به من العرب ، فلماذا يعجزون عن الإتيان بمثله إلا أن يكون من عند الخالق { أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا }(٣٦) ، يقول الزمخشري في كشافه : " الوجه الثاني : أن يكون ورود هذه الأسماء هكذا مسرودة على نمط التعديد كالإيقاظ وقرع العصا لمن تحدى بالقرآن وبغرابة نظمه ، وكالتحريك النظر في أن هذا المتلو عليهم وقد عجزوا عنه عن آخرهم كلام منظوم من عين ما ينظمون منه كلامهم ليؤديهم النظر إلى أن يستيقنوا أن لم تتساقط مقدرتهم دونه ، ولم تظهر معجزتهم عن أن يأتوا بمثله بعد المراجعات المتطاولة ، وهم أمراء الكلام ، زعماء الحوار ، ... ، ولم يبلغ من الجزالة وحسن النظم المبالغ التي بزت مبالغ كل ناطق ، وشقت غبار كل سابق ، ... ، إلا لأنه ليس بكلام البشر ، وإنه كلام خالق القوى والقدر "(٣٧) .

وقد جمع ابن عاشور في تفسيره " التحرير والتنوير " واحدا وعشرين وجها في تفسير الحروف المقطعة في أوائل السور ورجح منها ثلاثة أوجه هي : " كون تلك الحروف لتبكيت المعاندين وتسجيلا لعجزهم عن المعارضة ، أو كونها أسماء للسور الواقعة هي فيها ، أو كونها أقساما أقسم بها لتشريف قدر الكتابة وتنبيه العرب الأميين إلى فوائد الكتابة لإخراجهم من حالة الأمية " ثم اختار من هذه الأقوال الثلاثة الأول :

" وأرجح الأقوال الثلاثة هو أولها " (٣٨) .



والذي يرجح هذا الوجه فعلا الآية الثانية التالية للأحرف المقطعة : { ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ }(٣٩) فقد جاءت كنتيجة مباشرة لتحدي الله لأرباب البيان وإظهار عجزهم ، وفي الوقت نفسه تضمنت الغاية من الحجاج وهي (الهدى) بمعنى اقتناع المتلقين بتغيير عقيدتهم وموروثاتهم وسلوكهم بما اقتضاه التنزيل :

مقدمة : ا ل م (عجزكم عن الإتيان بمثله) ←—— نتيجة : (ذلك الكتاب لا ريب فيه)

مقدمة : التسليم بأن القرآن كلام الله ←—— نتيجة : تغيير العقيدة والموروث والسلوك

وتتكاثف البنية الحجاجية وتتضام مع آيات التحدي الصريحة في نهاية الربع الأول لتذكر الريب الذي تحكم في حكمهم على كتاب الله ، وتأتي الآية التقريرية الثانية منزهة القرآن عن أي ريب أو ظن : { وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ . فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ }(٤٠) . والتي جاءت كنهاية لسلم حجاجي تدرج مع الطرف الآخر في التحدي والإعجاز لتأتي آية سورة البقرة لتمثل الدرجة الأخيرة لهذا السلم ، بدأ السلم وتوإلى بمكة واختتم الدرجة الأخيرة بالمدينة ، تمثلت الدرجة الأولى من السلم في آية سورة القصص : { قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِنْ عِنْدِ اللهِ هُوَ أَهْدَى مِنْهُمَا أَتَّبِعْهُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ }(٤١) بالتحدي بالكتاب كله ،ثم الدرجة الثانية مع آية سورة هود : { أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ }(٤٢) فجاء التحدي هنا ساخرا من اتهامهم القرآن بالافتراء ونزل التحدي بالمطلب إلى عشر سور فقط فزاد في إعجزاهم وتبكيتهم ، ثم نزل التحدي إلى سورة واحدة في سورتين مختلفتين أولاهما مكية { أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ }(٤٣) ، وثانيهما آية البقرة التي ختم بها السلم الحجاجي وجاء بعدها الحكم

الإلهي الآني والمستقبلي : " فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا " لم ينزل تحد تال في أية سورة بعدها وفي الوقت نفسه لم ينتهك أحد هذا التحدي بمحاولة الإتيان بمثله وإلا كان قد أفسد حجيته ، وهو من دلائل إعجاز القرآن الكريم أن يظل الإعجاز ساريا إلى أن تقوم الساعة ، ثم يترتب على هذا الحكم نتيجة " فاتقوا النار .." يقول الزمخشري : " لما أرشدهم إلى الجهة التي منها يتعرفون أمر النبي ﷺ وما جاء به حتى يعثروا على حقيقته وسره وامتياز حقه من باطله قال لهم : فإذا لم تعارضوه ، ولم يتسهل لكم ما تبغون ، وبان لكم أنه معجوز عنه ، فقد صرح الحق عن محضه ووجب التصديق، فآمنوا وخافوا العذاب المعد لمن كذب "[٤٤] .

فالحكم الصادر من الله عز وجل جاء كخاتمة لمحاجة استمرت لسنوات طوال دلت عليها الصيغة الصرفية لفعل التنزيل ، فـ "نزلت" : تقتضي النزول منجما ومفرقا حسب الحوادث والأسباب[٤٥] تحدى الله فيها أرباب البيان أن يأتوا بمثله أو بسور منه أو حتى بسورة واحدة مثله ، ويلفتنا ابن عاشور إلى امتناع العرب من الفصحاء البلغاء عن أن يحاولوا أن يخوضوا في تجربة الإتيان لو بآيات مثله مجرد محاولة ، ويعلل لذلك بقوله: "لعلهم رأوا أن السكوت يقبل من التأويل بالأنفة ما لا تقبله المعارضة القاصرة عن بلاغة القرآن فثبت أنه معجز لبلوغه حدا لا يستطيعه البشر ، فكان هذا الكلام خارقا للعادة ودليلا على أن الله أوجده "[٤٦] .

٢- الحجاج مع المنافقين :

على الرغم من أن سورة البقرة أطول سور القرآن الكريم (٢٨٦ آية) إلا أن الدارس لها يجدها تدور حول محور واحد مزدوج يترابط فيه خطان ترابطا شديدا : فهي من ناحية تدور حول موقف بني إسرائيل من الدعوة الإسلامية ، واستقبالهم لها ، ومواجهتهم للرسول صلى الله عليهم وسلم وللجماعة الإسلامية الناشئة ، وسائر ما يتعلق بهذا الموقف من علاقة اليهود بالمنافقين من

جهة ، وبين اليهود والمشركين من جهة أخرى ، وهي من الناحية الأخرى تدور حول موقف الجماعة الإسلامية في أول نشأتها والشرائع التي تحتاجها لإقامة دولتها[٤٧] ، وكم تظهر الآيات – كما تظهر دوما ـ شديدة الترابط ، وقوية السبك ، ومتينة البنيان عندما نتتبع أثر الخطاب الحجاجي فيها ، وكيف أن النص الإلهي معجز كل ما فيه من صوت ورسم وكلمة وتركيب وصورة ودلالة وغاية متماسك متجانس لا يشبع منه العلماء ولا يخلق على كثرة الرد .

بعد أن بدأت سورة البقرة بذكر المؤمنين في خمس آيات ذكرت فيها وصفهم وسمتهم ، ثنت بعد ذلك بالكافرين في آيتين فقط اكتفت بذكر الغشاوة والختم على قلوبهم وأسماعهم وأبصارهم ، انتقلت الخطاب بعدها إلى الحديث عن طائفة جديدة لم تظهر بمكة من قبل وهي طائفة المنافقين – وهي إحدى علامات السور المدنية – جاء الحديث عنهم في ثلاث عشرة آية كاملة وكأن القرآن يحذر من هذه الطائفة الخبيثة المظهرة الإيمان المبطنة الكفر أعظم من تحذيره من الكفار المتسقين سريرة وعلانية ، ينقسم محور المنافقين في مطلع سورة البقرة إلى خطابين متضادين : الأول يصف فيه المنافقون أنفسهم فيسمون ذواتهم بالصلاح والإصلاح والإيمان ، والخطاب المعاكس من الله عز وجل يفضحهم ويثبت لهم عكس ما وسموا به أنفسهم ، فنجد إثبات الصفة من لدن المنافقين ثم دحضها وإثبات عكسها من الله عز وجل سريعا متعاقبا في الآية التالية ، وأحيانا في الآية نفسها حتى يمحو أثر ما قالوه مباشرة دون أن ينتظر الخطاب القرآني سرد المنافقين لصفاتهم كلها ثم يرد عليهم بعدها .

أول صفة أثبتها المنافقون لأنفسهم كانت الإيمان : { وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ . يُخَادِعُونَ اللهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ . فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ }[٤٩] ، ولأنها الصفة الفيصل التي بإثباتها تثبت حقوق وواجبات وانتماءات كان لا بد من الإسهاب في نفيها بشكل واضح جلي لا

يحتمل تأويلا أو تفسيرا ، فجاء نفي الصفة عنهم بالكلية أولا " وما هم بمؤمنين " هذا النفي الذي أخرجهم بحكم الله من دائرة الإيمان المدعاة إلى دائرة الكفر الخفية ،ولذلك جاء الحديث عنهم في سياق معطوف على الكافرين وكأنه إثبات أن المنافقين ينتمون إلى ذات الدائرة ، ثم يأتي إثبات الخداع ونفيه ، فهم يظنون أنهم يخدعون المؤمنين بإظهارهم للإيمان وإبطانهم للكفر لكن رد القرآن جاء بأكثر من طريق : الأول وضع المؤمنين مع الله في صف واحد عن طريق العطف، وكأن المؤمنين في كنف الله وحمايته وحفظه ،فالعطف الذي يقتضي المشاركة في الحكم له وظيفة دلالية في هذا السياق ، فمن يمكنه أن يظن مجرد الظن أن الله عز وجل يمكن خداعه ،وكأن إلحاق المؤمنين بلفظ الجلالة نفى المعلومة تماما، وجعل الجملة التالية نتيجة عقلية وحتمية في آن واحد : " وما يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون " ، ثم يعلل القرآن سبب هذا السفه الذي ظنوه من قدرتهم على خداع (الله –المؤمنين) بذلك المرض الكامن في نفوسهم الذي يزيده الله عليهم ليستحقوا في النهاية النتيجة الطبيعية " عذاب أليم " بسبب (باء السببية) " ما كانوا يكذبون ".

ثم يستكمل الحوار الكائن مع المنافقين بآيتين متشابهتين أسلوبا ودلالة ، فكلتاهما تظهر ما لدى المنافقين من صلف وعناد وتكبر وترفع عن قبول الحق وكلتاهما رد الله عليها بالأسلوب نفسه : { وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ . أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ . وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ }(٥٠) ، ولأن ستر المنافقين مكشوفة ونواياهم مفضوحة يطلب منهم أحيانا – خاصة من كبرائهم – أن يكفوا أذاهم وإفساهم فيأتي ردهم حصرا وقصرا بـ " إنما" وكان الصلاح والإصلاح مقصور عليهم وكأن دورهم في الحياة الإصلاح ، فيأتي دحض القرآن لحكمهم عن طريق هذا التركيب : ألا (للتنبيه) + إن (للتوكيد) + هم (الضمير العائد عليهم) + هم (ضمير الفصل للتوكيد) + المفسدون (تعبير باسم الفاعل يوحي بلزوم الصفة لهم والتصاقها بهم) + ولكن (للاستدراك) + لا يشعرون (إثبات الفساد لهم من حيث لا يشعرون) ، وكذلك الحال

بالنسبة للآية التالية ، وجاءت جملة الرد الإلهية ردا عليهم في غرورهم كما ذكر ابن عاشور : " فرد عليهم بطريق من طرق القصر هو أبلغ فيه من الطريق الذي قالوه ، لأن تعريف المسند يفيد قصر المسند على المسند إليه ، فيفيد قوله : " ألا إنهم هم المفسدون " قصر الإفساد عليهم بحيث لا يوجد في غيرهم ، وذلك نفي حصر أنفسهم في الإصلاح وينقضه "[٥١] ، ويستمر الخطاب عنهم فيحكي القرآن على لسانهم " { وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إلى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُون }[٥٢] ، ففي مقابل تأكيدهم في خطابهم مع المؤمنين " إنما نحن مصلحون " يأتي تأكيدهم وبأسلوب القصر نفسه على استهزائهم بالله وشريعته وآياته ، وقوله : "إنما نحن مستهزئون " حكاية عنهم أنهم قالوا وليس بخبر من الله تعالى ، وقوله تعالى :"الله يستهزئ بهم " خبر من الله تعالى أنه يجازيهم على كفرهم واستهزائهم "[٥٣] ، فيأتي جزاؤهم من جنس قولهم وعملهم منطقيا ومقبولا "ومن ذلك الجزاء عن الفعل بمثل لفظه والمعنيان مختلفان، نحو قول الله تعالى (إنما نحن مستهزئون)(الله يستهزئ بهم) "[٥٤] ، وهكذا استمر الحجاج مع المنافقين عن طريق ذكر صفاتهم حكاية على لسانهم ثم الرد عليها الواحدة تلو الأخرى من الله عز وجل مع ذكر جزائهم عليها.

٣- الحجاج مع الكفار :

توزع الخطاب مع الكافرين وعنهم على مدار سورة البقرة ،بدءا من الآية ٦ وحتى ٢٧٦ ، تعددت فيها الوسائل والتقنيات حسب مقتضيات الحجاج ومنها السؤال وهو من أكثر الوسائل التي يستخدمها القرآن الكريم مع المعارضين ، يطرح القرآن أسئلة واردة أصلا ، أو أسئلة افتراضية أو متضمنة ، مثارة فعلا أو يمكن أن تثار في بيئة نزول القرآن أو في أي بيئة مزامنة أو مستقبلية .

يوجه القرآن السؤال للكفار : { كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ . هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَى إلى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ }(٥٥) ، وينضح السؤال باستنكار شديد لفعل جاحد متناف مع العقل والمنطق والفطرة ، ولأن سياق القرآن واحد لا يتجزأ ، كل لا ينفصل فلا ينبغي النظر لهذه الآية على أنها الأولى في السياق الحجاجي مع الكفار لأن لفظ الكفر تم التصريح به فيها ، لكننا لابد أن نلتفت إلى بنية حجاجية سلمية يمثل السؤال فيها القمة بعد درجات سابقة تنبه لأولاها ابن عاشور في تفسيره حيث يقول : "ومن بديع المناسبة وفائق التفنن في ضروب الانتقالات في المخاطبات أن كانت العلل التي قرن بها الأمر بعبادة الله تعالى في قوله : { يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ } هي العلل التي قرن بها إنكار ضد العبادة وهو الكفر به تعالى في قوله هنا { كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللهِ } فقال فيما تقدم : { الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ . الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً } الآية، وقال هنا { وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ . هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَى إلى السَّمَاءِ } وكان ذلك مبدأ التخلص إلى ما سيرد من ابتداء إنشاء نوع الإنسان وتكوينه وتطوره ، فالخطاب في قوله { تَكْفُرُونَ } متعين رجوعه إلى { النَّاسُ } وهم المشركون لأن اليهود لم يكفروا بالله ولا أنكروا الإحياء الثاني" (٥٦) .

تمثلت الدرجة الأولى من هذا السلم الحجاجي مع الكفار بالأمر ، أمر لعموم الناس المغلف بالود والحب والمدعم بالعقل والمنطق ، لم يستند إلى فطرة مجبول الناس عليها فقط بل تعداه إلى محاورة إقناعية هادئة فالرب (المسئول عن عباده في رزقهم وأحوالهم وسائر شئونهم) + الضمير (كم) : الذي تكرر ثلاث مرات في هذه الآية أفاض تأكيدا على ربوبية الله لهم وإحاطته المطلقة بهم ، ثم سرد ما أعده الله لعموم الناس ، وما تفضل به وأنعم بما لا يدع مجالا للمتلقي غير الإذعان والتسليم والإيمان ، ثم توالت الدرجات بين إيعاد بالنار التي وقودها الناس والحجارة لمن

كفر، ووعد وبشرى بالجنان التي تجري من تحتها الأنهار لمن آمن ، ثم تأتي الدرجة قبل الأخيرة { إِنَّ اللهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللهُ بِهَذَا مَثَلًا }(٥٧) ، تقرير ليس على سبيل الإخبار فحسب ولكنه نفي وإثبات وإجابة أيضا ، نفي أن يعاب على القرآن ضرب المثال بخلق البعوضة وإثبات للقدرة الإلهية فمن خلق البعوضة خلق السموات والأرض ، ومن عجز – أيها الكفار- عن خلق السموات والأرض عاجز أن يخلق جناح بعوضة ، والإجابة عن سؤال مفترض ربما صرح به الكفار أو لم يصرحوا لكن إجابته متضمنة في جملة الخبر بتوكيداتها ، كما أشار لذلك الزمخشري حيث يقول : " ويجوز أن تقع هذه العبارة في كلام الكفرة فقالوا : أما يستحيي رب محمد أن يضرب مثلا بالذباب والعنكبوت ؟ فجاءت على سبيل المطابقة ، وإطباق الجواب على السؤال. (٥٨) ، وإخراج الخبر عن مقتضاه أشار إليه الخطيب القزويني بقوله :" وكثيرا ما يخرج على خلافه – يقصد الخبر- فينزَل غير السائل منزلة السائل ، إذا قدم إليه ما يلوح له بحكم الخبر ، فيستشرف له استشراف المتردد الطالب ، كقوله تعالى : { وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ } "(٥٩) .

٤- الحجاج مع المؤمنين :

للوهلة الإلى ربما يعتقد البعض أن الحجاج مع المؤمنين مستبعد ، فإذا كانت غاية الحجاج هي الإقناع والإذعان فالمؤمنون بالفعل قد وصلوا لهذه المرحلة ، فلم الحجاج في الخطاب الموجه لهم ، تأتي الإجابة سهلة يسيرة على لسان سيدنا إبراهيم عليه السلام في سورة البقرة : { وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي }(٦٠) ليتحول الإيمان إلى يقين ثابت دائم مبني على قواعد عقلية سليمة .

ومثال ذلك المقطع في الجزء الثالث الذي يحث الله فيه المؤمنين على الإنفاق والبذل والصدقة مع بيان آداب الإنفاق ، بدأ القرآن الكريم حديثه عن الإنفاق بالآية الثانية من الجزء الثالث والسابقة لآية الكرسي : { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَاعَةٌ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ }[٦١] عن طريق الأمر المباشر مع تذكير وتخويف ، التذكير بـ (مما رزقناكم) فالمال مال الله فكيف تبخلون بما لا تملكون وتعصون حكم المالك المتصرف فيما يملك ، والتخويف من أن يأتي يوم الحساب والجزاء ولم تطهروا أموالكم ولم تستجيبوا لأمر الله وحينها لات مندم ، ثم اختيار لفظ (الكافرون) هنا للتعبير عن مانعي الزكاة اختيار يزيد من تعظيم جرم الامتناع عن دفع الزكاة ، بداية شديدة عنيفة مؤثرة خاصة وقد أتت بعدها آية الكرسي بعظمتها وجلالها ، وبعد هذه الآية بسبع آيات يأتي مقطع كامل من آية ٢٦١ وحتى آية الدين ٢٨٢ يحث على الإنفاق، ويوجه إلى الالتزام بآدابه، وينظم العلاقة المالية داخل المجتمع الإسلامي فيحل البيع، ويحرم الربا، ويشرع كتابة الدين ، وينظم الشهادة ، ويقيم الأسس الاقتصادية للمجتمع الإسلامي.

واعتمد القرآن في هذا المقطع على ضرب الأمثال المتتالية مع طرح أسئلة خارجة عن سياق الاستفهام لتخرج إلى إطار الحجاج العقلي بحيث تجعل المتلقي نفسه هو من يصل إلى الإجابة بنفسه ، ويقتنع بها ، ومن ثم يكون قد ألزم نفسه بها، وانتقل السياق بهذه الآليات الحجاجية من أسلوب التخويف والترهيب إلى أسلوب الإقناع والترغيب ، مما أسبغ على هذا المقطع لينا ورقة بعد الشدة في الآية الأولى .

وأول هذه الأمثال : { مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِئَةُ حَبَّةٍ وَاللهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ }[٦٢] ، فى عموم القرآن نجد التركيز في سرد الآيات أو الاستدلال بنعم الله أو ضرب الأمثال نجده غالبا ما يركز على حاسة البصر ،

مع إيراد مفردات محسوسة ملموسة مرئية من البيئة المحيطة ، لتكون أعظم أثرا في نفوس المتلقين خاصة أن السمة الغالبة عليهم هي الأمية ، وهكذا تستثير صورة سنبلة القمح المترعة بالحب الخيال مع وعد الله بالمضاعفة دون حد مذكور ، مما يحرك النفس البشرية المجبولة على حب المنفعة ، فيجعلها تضحي بالقريبة القليلة منها لتظفر – بوعد الله – على أضعافها في المستقبل .

وثاني الأمثال التي ضربها الله في سياق آداب الإنفاق والحث على القول المعروف مع الصدقة وتقبيح المن والأذى : { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِمَّا كَسَبُوا وَاللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ }(٦٣) ، استخدم القرآن هنا كاف التشبيه وكأن الحالين واحد المنفق رياء وبين المنان ثم بدأ بضرب المثل بالنص عليها كسابقتها ، ثم باستحضار صورة مألوفة للعين العربية صورة صخرة ملساء عليها تراب هطل عليها وابل من المطر هل يظل عليها شيء منه ؟ وتختتم الآية بذكر الكافرين للمرة الثانية وكأنه تأكيد على عظم الجرم في الأولى جرم الامتناع عن الإنفاق والثانية جرم الإنفاق بمن أو رياء ، وفي المقابل من أداها مخلصا صادقا دون من أو أذى "{ وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللهِ وَتَثْبِيتًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِنْ لَمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ }(٦٤) ، بدأت الصورة المقابلة بالنص على كلمة مثل للمرة الثالثة ثم إعطاء الصورة المضادة تماما بدل الحديقة الوارفة بشرف عال حيث الخصوبة جودة التربة في مقابل الحجر الأملس الذي تعلوه طبقة التراب وكلاهما هطل عليه وابل المطر (يقابل الإنفاق من زكاة أو صدقة) والنتيجة معروفة مسبوقة لا تحتاج إلى دليل أو برهان فالجنة ستؤتي أكلها وافرا مضاعفا حتى لو لم يكن وابلا وكان الإنفاق طلا يسيرا فحسب " فمطر صغير القطر يكفيها لكرم منبتها ، أو مثل حالهم عند الله بالجنة على الربوة ، ونفقتهم الكثيرة والقليلة بالوابل والطل ،وكما أن كل واحد

من المطرين يضعف أكل الجنة ،فكذلك نفقتهم كثيرة كانت أو قليلة بعد أن يطلب فيها وجه الله ويبذل فيها الوسع زاكية عند الله زائدة في زلفاهم وحسن حالهم عنده"[٦٥] ، ثم يأتي المثل الثالث في الآية التالية مباشرة بادئا بسؤال لا يسع المتلقي إلا أن يجيب عنه إجابة واحدة فقط : { أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ } [٦٦]. الإجابة المنطقية العقلية الوحيدة : لا يا رب ، فمن الذي يمكنه أن يقبل أن يضيع عمله وغرسه هباء بعد افتقاره إليه لذا ذكر الزمخشري أن الهمزة للإنكار : " وعن الحسن رضي الله عنه : هذا مثل قل والله من يعقله من الناس ، شيخ كبير ضعف جسمه وكثر صبيانه أفقر ما كان إلى جنته ، وإن أحدكم والله أفقر ما يكون إلى عمله إذا انقطعت عنه الدنيا "[٦٧] ، لذا كان منطقيا أن يأتي الأمر بالإنفاق صريحا بعد الأمثلة الثلاث { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ }[٦٨] مذكرا للمرة الثانية أن ما ستنفقونه هو رزق الله لكم فلا فضل لكم سوى في اتقائكم شح أنفسكم ، وانتقائكم الطيب دون الخبيث ، ولوصول المحاجة هنا إلى ذروتها عقب القرآن بعد هذا المقطع بقول الله تعالى : { يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ }[٦٩] .

٥ - الحجاج مع الملائكة :

يأتي الحجاج مع الملائكة فريدا من حيث أطراف الحجاج وزمانه ومكانه وموضوعه ، حجاج علوي سماوي بين الله عز وجل وبين الملائكة المكرمين قبل خلق الإنسان ، وحول خلق الإنسان : { وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ }[٧٠] .

يبدأ هذا المقطع فعليا من الآية السابقة عليه والتي استدعت ذكر قصة خلق سيدنا آدم والحوار بين الله عز وجل وبين الملائكة عن غاية خلقه وإنشائه ، { هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا }[٧١] ، إذن الكون كله معد للإنسان على الرغم من تأخر خلقه ملايين السنين عن خلق الكون بما أثبتته الحقائق العلمية وذكره الله في كتابه قبلا :

{ هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا }[٧٢] ، وكأن الأرض تستعد لسيدها الذي خلق الله كل ما عليها ليقوم بوظيفته فيها { هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا }[٧٣] ، وهكذا الغنم بالغرم غنم السيادة والتفضيل والتكريم { وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا }[٧٤] بغرم العمارة والعمل والاستخلاف { وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ }[٧٥] .

بدأ الحوار بإذ الظرفية التي تدل على زمن غير معلوم لنا أخبر فيه الله عز وجل الملائكة بخلق آدم ليكون في الأرض خليفة ، إخبار عن تقدير وعلم سابقين ، فالأرض مذ خلقها الله ومهدها تستعد لاستقبال سيدها والمتصرف في شئونها ، وبغض الطرف عن الخرافات اليونانية أو الفارسية التي كانت تزعم أن الأرض استقبلت قبل آدم أقواما فهم الحن والبن مرة ، والطم والرم مرة ، والتيتان مرة أخرى ، وعن نظريات بعض المفكرين المسلمين عما قبل آدم عليه السلام[٧٦] ، فإن الراجح من كلام العلماء على أن أول خلق الله على الأرض هو آدم عليه السلام حيث استخلفه على الأرض واستعمره وذريته فيها ، "فالخليفة هنا الذي يخلف صاحب الشيء في التصرف في مملوكاته ولا يلزم أن يكون المخلوف مستقرا في المكان من قبل ، فالخليفة آدم وخلفيته قيامه بتنفيذ مراد الله تعالى من تعمير الأرض بالإلهام أو بالوحي وتلقين ذريته مراد الله تعالى من هذا العالم

الأرضي" (٧٧) ، هكذا أخبر الله تعإلى ملائكته ولكن الملائكة الموسمون بطاعة الله ما أمرهم يتساءلون وهم الأطهار المكرمون مستنكرين كيف يخلق الله في ملكوته من شيمته الفساد وسفك الدماء ، والملائكة لنورانيتهم واستشرافهم المستقبل أو لعلم سابق لهم أو لعلل أخرى(٧٨) استنكروا خلق هذا المخلوق وهم المجبولون على الخير وطاعة الله متى أمر وفعل ما يؤمرون به ، وجاء رد الخالق سبحانه عمليا تطبيقيا حتى يكون الإقرار منهم والتسليم والإذعان لأمر الله عن اقتناع ويقين وطمأنينة تكريما لهم وتشريفا لمقامهم ، رد الله عليهم بما يعرفونه ويؤمنون به { قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ } " وقول الله هذا موجه إلى الملائكة على وجه الإخبار ليسوقهم إلى معرفة فضل الجنس الإنساني على وجه يزيل ما علم الله أنه بنفوسهم من سوء الظن بهذا الجنس ، ويكون كالاستشارة لهم تكريما لهم فيكون تعليما في قالب تكريم ،....،ولتنبيه الملائكة على ما خفي ودق من حكمة خلق آدم "(٧٩) .

جاءت التجربة العملية المقدرة سلفا بتعليم الله آدم عليه السلام الأسماء كلها، أسماء الأشياء،صفاتها،خصائصها، أساس اللغة ، تفسيرات مختلفة لكلمة الأسماء لكن الغاية أن سيدنا آدم تلقى من لدن الله علما سبق به الملائكة، وجاءت لحظة المواجهة { ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ }(٨٠) حجاج مهيب في السموات العلى في جلسة يعقدها رب العزة بين الملائكة النورانيين وبين سيد الأرض الجديد الذي خلق في كنف الله وأسبغ الله عليه من فضله نفخة من روحه عز وجل لم يحظ بها مخلوق ،حجاج قائم على المواجهة بين الطرفين الرافض و المرفوض ، لكن كفة المرفوض ترجح بالعلم وكأن العلم الذي يبنى عليه العمل أساس التكريم والتفضيل والتشريف ، يأتي الأمر للملائكة التي تفعل ما تؤمر : (أنبئوني) أمر يعرف الله بسابق علمه وقدرته عجز الملائكة عن الامتثال له ، وربما هي المرة الوحيدة التي لم يستطع فيها الملائكة الكرام أن يأتمروا بأمر الله ، ويأتي الاعتذار الرقيق الحزين لعدم الاستجابة خلافا لما

جبلوا عليه : { قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ }[٨١] رد منطقي فعلم الملائكة هو ما علمهم ربهم إياه ، وهو رد متوقع أيضا وبمثابة إقرار منهم بمكانة سيدنا آدم وتفضيل الله له ، وبقيت الخطوة الأخيرة في هذه المحاججة أن يجيب سيدنا آدم عما عجز الملائكة عنه ، وقد كان : { قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ }[٨٢] فعلم الله أزلي أبدي يعلم ما تبديه الأنفس وما تخفيه الصدور ، وبناء على هذا الإقرار جاء الأمر : { وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ } فكان التنفيذ والامتثال والإذعان : { فَسَجَدُوا }[٨٣] .

٦ - الحجاج مع بني إسرائيل :

يعد محور بني إسرائيل من أهم محاور سورة البقرة ، والذي يمتد طوليا عبر آياتها ليشكل حجاجا بين الله وبني إسرائيل من ناحية ، وبين موسى عليه السلام وبني إسرائيل من ناحية أخرى ، حتى اسم السورة جاء متماشيا مع هذا الخط نسبة لقصة بقرة بني إسرائيل ، جاءت بداية الخطاب مع بني إسرائيل عقب الانتهاء من قصة آدم عليه السلام وهبوطه على الأرض : { يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ }[٨٤] جاء النداء لبني إسرائيل (يعقوب عليه السلام) ففيهم انحصر اليهود وكان أولاد يعقوب الاثنا عشر – يوسف عليه السلام وإخوته الأحد عشر- هم أصول الاثنتي عشرة قبيلة التي انتمى اليهود : { وَقَطَّعْنَاهُمُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا }[٨٥] ، جاء الأمر عقب النداء بداية مجملة ثم جاء التفصيل بعد الإجمال عبر عشرات الآيات " فكان الإجمال في المقدمة قضاء لحق صدارتها بالتقديم ،وكان الإفضاء إلى المقصود قضاء لحقه في العناية ، والرجوع إلى التفصيل في النعم قضاء لحقها من التعداد ، فإن

ذكر النعم تمجيد للمنعم وتكريم للمنعم عليه ، وعظة له ولمن يبلغه خبر ذلك فيبعثه على الشكر"[٨٦] .

جاء الإجمال الأول مع فعل الأمر (اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم)، وتذكر بنو إسرائيل للنعم التي لم يسبقهم إليها أحد ، واستحضارهم لجميل نعمائه عليهم سبحانه وتعالى يجعلهم يرضخون ويذعنون لكل أوامر الله القادمة المتتالية إما عن طريق أفعال الأمر (أوفوا بعهدي) ، (إياي فارهبون) ،(آمنوا بما أنزلت مصدقا لما معكم) ، (وإياي فاتقون) ، (وأقيموا الصلاة) ، (وآتوا الزكاة) ، (واركعوا) ، (واستعينوا بالصبر والصلاة) ، (اذكروا نعمتي) - مكررة لزيادة التأكيد – ، (واتقوا يوما) ، أو عن طريق النهي (ولا تكونوا أول كافر به) ، (ولا تشتروا بآياتي ثمنا قليلا) ، (ولا تلبسوا الحق بالباطل) ، (وتكتموا الحق) .

ويبدأ سرد النعم التي لم يمن على قوم بمثلها ، ونجدها غالبا تبدأ بإذ وتأتي في بدايات الآيات ، وتكررت "إذ" في سياق تعداد النعم خمس عشرة مرة بدأت بقوله تعالى : { وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ }[٨٧] ، واختتمت بقوله تعالى : { وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُوا قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمَانُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ }[٨٨] ، يذكرهم الله تعالى بنجاتهم من فرعون قاتل أبنائهم ومستحيي نسائهم ، وبعفوه عنهم بعد جرمهم النكر باتخاذهم العجل إلها لهم ، وبمنه عليهم بإنزال الألواح على موسى عليه السلام فيها هدى ونور، وببعثهم بعد موتهم عقب أخذ الصاعقة لهم ، وبتظليل الغمام عليهم ، وبإنزال المن والسلوى ، وبالاطمئنان في القرية وأكل الطيبات ، وتفجير الينابيع لهم ، وبتغيير أنواع الطعام لهم ، إلى آخر هذه النعم المتتالية التي لم تقابل من أغلب بني إسرائيل إلا بالجحود والنكران ، ولأن الله تعالى عليم خبير يعرف طباع خلقه وما يحركهم ، فسبحانه يعرف طبع

العبودية والمذلة التى جبل اليهود عليها ، والتي تحكمت فيهم لقرون طوال أورثتهم تلك الطبيعة الجاحدة للنعم ، الناكرة للجميل ، الطامعة طمعا لا يقف عند حد أو منتهى ، التي تحركها العصا والأذى ويوقفها الجبن والخور ، لأن الله تعالى عليم بهذا كان لابد أن يتضافر مع خيط النعم والترهيب حبل التهديد والوعيد لذلك كان الأمر الثاني مباشرة بعد (اذكروا نعمتي) كان (فارهبون) ، ويظل الخطاب يراوح بين التذكير بالنعم وبين التخويف والوعيد مما كان ومما سيكون : { وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ }[٨٩] ، { وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ }[٩٠] ، { وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ }[٩١] ، ومما يبعث على التهديد أيضا فضح كبرائهم وعلمائهم الذين كانوا يمثلون طبقة الأحبار ذوي القداسة الذين يملكون وحدهم أسرار العلم التوراتي ، ويتوارثونه كابرا عن كابر فيترفعون به على عموم اليهود ،ومن أمثلة ذلك فضح الله تحريفهم للكتاب المقدس { أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ }[٩٢] ، وكتابتهم الكتاب بأيديهم { فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ }[٩٣] ، وإنكارهم القرآن وهم موقنون بصدقه { الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (١٤٦) } ، وبين هذا وذاك خطاب حجاجي مباشر من الله تعالى لبني إسرائيل أو على لسان رسوله ﷺ عبر فعل الأمر قل ، فيذكر الله تعالى ادعاءات اليهود وافتراءاتهم ومزاعمهم ثم يرد عليها الواحدة تلو الأخرى ردا عقليا منطقيا لا يحتمل اللبس أو التشكيك فيدحض كل مزاعمهم ومنها : { وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلِفَ اللهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٨٠) }[٩٤] ، { قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللهِ خَالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ }[٩٥] { وَقَالُوا



لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ }[٩٦] ، { وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ }[٩٧] ، ثم بأسلوب تقريري توكيدي يؤكد الله تعالى على عدد من الحقائق غير مطروحة للتفكير والنقاش فهي حقائق ثابتة مفروغ من صحتها ، ومن أمثلة هذه الحقائق قوله تعالى : { وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ وَاللهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ } [٩٨] ، فلام التوكيد هنا ثم الفعل المضارع ثم نون التوكيد ثم أفعل التفضيل ثم تنكير حياة يوحى بمدى تشبثهم بالدنيا مهما كانت حياتهم فيها وضيعة ، ثم تأكيد الله لاستحقاقهم النار سواء كان الموت عاجلا أم آجلا والتأكيد على ذلك عن طريق تقديمهم على المشركين والثاني باختيار هذا الفعل (زحزح) بهذه الصيغة الصرفية (اسم فاعل) مع اتصاله بالباء أكسب المعنى ثقلا شديدا والتصاقا بالعذاب مهما طالت أعمارهم .

وهكذا ينتقل الخطاب مع بني إسرائيل من تقنية لأخرى حتى يفند كل ما يزعمونه وكأن قوله تعالى لبني إسرائيل: { قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ }[٩٩] هو عنوان الخطاب الحجاجي بين الله وبني إسرائيل " وهذا أهدم شيء لمذهب المقلدين ، وأن كل قول لا دليل عليه فهو باطل غير ثابت "[١٠٠] .

٧ - الحجاج مع إبراهيم عليه السلام :

ينقسم حجاج إبراهم عليه السلام في سورة البقرة إلى قسمين:

- الحجاج مع الله تعالى.

- الحجاج مع الملك النمرود .

الحجاج مع الله : وأتى في موضعين الأول : { وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ }[١٠١] ، فبعد نجاح إبراهيم عليه السلام في اختبارات الرسالة والنبوة وكان أكبرها عندما رأى في المنام أنه يذبح ابنه الوحيد إسماعيل ، والذي رزق به بعد أن تجاوز المائة فامتثل لأمر الله فكافأه الله تعالى وفدى ابنه بذبح عظيم ، بعدها من الله عليه بأن جعله إماما في الشرائع والعبادات ، ومن حرص سيدنا إبراهيم أراد الاطمئنان على سائر ذريته ، فاستخدم جملة خبرية لكنها تتضمن سؤالا : وماذا عن ذريتي ؟ فجاء رد الله قاطعا واضحا(لاينال عهدي الظالمين) نافيا إمامة الظالمين مثبتا إمامة الصالحين " استجابة مطوية بإيجاز وبيان للفريق الذي تتحقق فيه دعوة إبراهيم ، والذي لا تتحقق فيه بالاقتصار على أحدهما ، لأن حكم أحد الضين يثبت نقيضه للآخرعلى طريقة الإيجاز "[١٠٢] .

الموضع الثاني : { وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ }[١٠٣] وهو حوار بديع بين الله عز وجل وبين إبراهيم عليه السلام الذي أثبت الله له إتمام الكلمات والنجاح في الابتلاءات والإمامة في الصالحين من ذريته ، كيف يتخيل عقلا أن من من الله عليه بكل هذا يمكن أن يشك ولو لبرهة في قدرة الله على إحياء الموتى ، جاء سؤال الله تعالى إياه على سبيل التعجب والله أعلم بالإجابة فلماذا سأله يجيب الزمخشري بقوله : "فإن قلت كيف قال:(أولم تؤمن) وقد علم أنه أثبت الناس إيمانا قلت : ليجيب بما أجاب به لما فيه من الفائدة الجليلة للسامعين "[١٠٤] ، فيتحول الإيمان النظري لدى السامعين إلى تجربة عملية تثبت دعائم اليقين والطمأنينة في القلوب ، بحوار إبراهيم عليه السلام مع رب العزة

وما أجراه من تجربة حية ، وبالتجربة الأخرى في الآية السابقة عليها حيث أشهد الله من تعجب من إحياء الله لقرية هالكة بعد موتها على تجربة واقعية مر بها بنفسه ، فأماته الله مائة عام ثم بعثه وأمام عينيه أحيا الله حماره بعدما كان رميما ، وفي آن واحد ظل طعامه صالحا دون فساد بعد مائة عام ، هاتان التجربتان الحيتان المتتاليتان تتضامان معا لتشكلا بنيانا عقديا صلبا في نفوس المتلقين .

والحجاج الثاني كان بين إبراهيم عليه السلام والنمرود { أَلَمْ تَرَ إِلى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ }(١٠٥) .

الحجاج هنا تحول إلى مناظرة مستوفية للشروط : دعوى مطروحة بين جانبين يحتج كل منهما لرأيه ، يقارع كلا الجانبين الآخر بحجته ، وينتهي الأمر لصالح أحد الجانبين ، كانت الدعوى المطروحة هنا من الإله رب إبراهيم أم الملك ، بدأ إبراهيم عليه السلام بإلقاء حجته فاختار صفة إلهية لا ينازعها الله أحد (ربي الذي يحيي ويميت) ينتقل الدور في المناظرة إلى الطرف المقابل فجاء رد النمرود (أنا أحيي وأميت) موهما بالصحة والمنطقية لكنه في واقع الأمر قائم على الحجاج المغالطي " حجة النمرود مغالطة وليست حجة ،وقد جاء بمغالطة عن جهل أو غرور في الإحياء والإماتة ، لقد تجاهل النمرود المطلوب الحقيقي من قوله ربي الذي يحيي ويميت وعمد إلى البرهنة على شيء آخر ، وهو قدرته بحكم موقعه السياسي – الملك - على العفو عن المحكوم عليه بالموت ، وقتل برئ مع التمويه بأن هذا هو المطلوب "(١٠٦) ، اللافت أن إبراهيم عليه السلام لم ينزل من مستوى الحجاج إلى مستوى الجدل ، كان بإمكانه أن يوضح له الفارق بين القدرة على الإماتة والإحياء بكن فيكون وبين من يستخدم الأسباب التي خلقها الله تعالى من أجل الموت والحياة ، ترك إبراهيم عليه السلام هذه الحجة جانبا وانطلق لأخرى وكانت هي القاضية { فَإِنَّ اللهَ

يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ } والتي بها أنهى إبراهيم عليه السلام المناظرة لصالحه.

الخاتمة :

كما مر في البحث جاءت حجاجات سورة البقرة كلها – كسائر القرآن الكريم – غايتها حمل الطرف المقابل على التسليم والإذعان لله تعالى ولشريعته عن اقتناع وحب ورغبة ويقين ولذا جاءت خواتيم سورة البقرة متسقة متناغمة مع غايتها بدأت بإثبات الملك والتصرف والقدرة لله وحده عز وجل { لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ}[١٠٧] وثنت بإثبات إيمان الرسول ﷺ وكل من آمن به بالله وملائكته كتبه ورسله وبكل من سبق من رسل الله من ذكر في سورة البقرة ومن لم يذكر { آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ }[١٠٨] ، وجاءت جملة الختام على لسان المؤمنين المستسلمين الخاضعين لله وحده "{ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا } في مقابل { قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا }[١٠٩] من اليهود الجاحدين ، وجاءت جملة الاستسلام المحبة بداية لدعاء طويل ختم الله به السورة ، وهكذا افتتحت السورة بالإيمان وبالإيمان ختمت.

وهكذا يحمل القرآن الكريم من أمامه حملا على التفكر، والتدبر، وإعمال العقل، ومقارعة الحجة ، والاقتناع اختيارا وليس جبرا ، احتراما للعقل ، وتقديرا للإنسان المفضل على سائر المخلوقات والذي تحمل وحده دونا عن سائر المخلوقات أمانة التكليف { إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا }[١١٠] ، ومناط التكليف العقل به تفرد الإنسان ، وبسببه سيحاسب ، وبدا جليا كيف أن الخطاب الحجاجي أحد الوسائل التي استخدمها القرآن الكريم في الإقناع بخصوصية ظاهرة ،

خصوصية القائل والمتلقى والنص والسياق ، والتي تحتاج جهودا جمة ودراسات متوالية للكشف عن جوانبها المختلفة ،كما يحتاج تراثنا العظيم من كتب تفاسير القرآن وعلومه وتأويله ومشكله إلى سبر أغوارها، واستخراج كنوزها ، وما فيها من نظرات فذة ولفتات بارعة تتجاوز الماضي لتقارب واقع النظريات الحديثة .

حواشي البحث :

١. (سورة يوسف : ٢)

٢. عن الحارث قال : مررت في المسجد فإذا الناس يخوضون في الأحاديث فدخلت على علي فقلت : يا أمير المؤمنين ألا ترى أن الناس قد خاضوا في الأحاديث ، قال : وقد فعلوها ، قلت : نعم ، قال أما إني قد سمعت رسول الله ﷺ يقول : ((ألا إنها ستكون فتنة)) ؛ فقلت : ما المخرج منها يا رسول الله قال : ((كتاب الله فيه نبأ ما كان قبلكم وخبر ما بعدكم وحكم ما بينكم وهو الفصل ليس بالهزل من تركه من جبار قصمه الله ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله وهو حبل الله المتين وهو الذكر الحكيم وهو الصراط المستقيم هو الذي لا تزيغ به الأهواء ولا تلتبس به الألسنة ولا يشبع منه العلماء ولا يخلق على كثرة الرد ولا تنقضي عجائبه هو الذي لم تنته الجن إذ سمعته حتى قالوا : إنا سمعنا قرآنا عجباً يهدي إلى الرشد من قال به صدق ومن عمل به أجر ومن حكم به عدل ومن دعا إليه هدى إلى صراط مستقيم (أخرجه الترمذي).

٣. (سورة البقرة: ٢٥٦)　٤. (سورة فصلت: ١١)　٥. (سورة العنكبوت: ٢٠)

٦. (سورة طه : ١٢٨)　٧. (سورة النور: ٤٤)　٨. (سورة إبراهيم: ٢٥)

٩. ا.د جمال حضري : جماليات الإقناع في الأسلوب القرآني :قسم اللغة والأدب العربي :كلية الآداب واللغات :جامعة المسيلة :ص٤: بحث منشور على الانترنت.

١٠. جمال الدين بن منظور المصري: لسان العرب :مادة حجج : دار صادر : بيروت : ط١ :٢٠٠٠م.

١١. الشريف علي بن محمد الجرجاني : التعريفات : تحقيق إبراهيم الإبياري : دار اللسان العربي : بيروت : ١٩٩٢م :ص ٤٨٢.



١٢. أبو القاسم جار الله الزمخشري : تحقيق محمد باسل عيون السود :دار الكتب العلمية : بيروت : ط١ : ١٩٩٨م : ج١ : ص ١٦٩.

١٣. د.يوسف محمود عليمات :بلاغة الحجاج في النص الشعري ،دالية الراعي النميري نموذجا : مجلة جامعة دمشق : المجلد ٢٩: العدد(١+٢): ٢٠١٣م :ص ٢٥٦.

١٤. د.صلاح فضل : بلاغة الخطاب علم النص : عالم المعرفة : الكويت : ١٦٤ : أغسطس ١٩٩٢م.

١٥. محمد العبد : النص الحجاجي العربي : دراسة في وسائل الإقناع : مجلة فصول : الهيئة المصرية العامة للكتاب : ٢٠٠٢م : عدد ٦٠ : ص ٤٤.

١٦. د.عباس حشاني :مصطلح الحجاج بواعثه وتقنياته : مجلة المخبر ،أبحاث في اللغة والأدب الجزائري : العدد التاسع : ٢٠١٣ م : ص ٢٧٥ .

١٧. د. عبد الله صولة : الحجاج في القرآن من خلال أهم خصائصه الأسلوبية: منشورات كلية الآداب بمنوبة : تونس : ط١ : ٢٠٠١ : ص ٤٤.

١٨. ضياء الدين بن الأثير : المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر : تقديم د.أحمد الحوفي ود.بدوي طبانة : دار نهضة مصر : ١٩٦٠م : الجزء الثاني : ص ٦٤.

١٩. (سورة البقرة : ٧٦) ٢٠. (سورة البقرة : ١٣٩) ٢١. (سورة البقرة : ٢٥٨)

٢٢. (سورة آل عمران : ٢٠) ٢٣. (سورة آل عمران : ٦١)

٢٤. (سورة آل عمران : ٦٥ - ٦٦) ٢٥. (سورة آل عمران : ٧٣)

٢٦. (سورة الأنعام : ٨٠) ٢٧. (سورة غافر : ٤٧) ٢٨. (سورة الشورى : ١٦)

٢٩. (سورة النساء : ١٠٩) ٣٠. (سورة الحج : ١٩) ٣١. (سورة طه : ٦٢)

٣٢. (سورة الكهف : ٣٤) ٣٣. عبد الله صولة : المرجع السابق : ص ٤١.

٣٤. من نماذج هذه الدراسات : البنية الحجاجية في القرآن الكريم ،سورة النمل نموذجا للحواس مسعودي ، الحجاج في خطابات النبي إبراهيم عليه السلام ، الحوار في مشاهد القيامة في القرآن الكريم، دراسة دلالية بيانية ، البعد التداولي في الخطاب القرآني الموجه إلى بني إسرائيل ،وغيرها.



٣٥. سيد قطب : في ظلال القرآن : دار الشروق : الطبعة الثانية عشرة : ١٩٨٦م : المجلد الأول: ص١٧ .
٣٦. (سورة النساء : ٨٢)
٣٧. جار الله الزمخشري : الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل : تقديم وتعليق خليل مأمون شيحا : دار المعرفة : بيروت : ط٣ : ٢٠٠٩م : ص٣٣.
٣٨. محمد الطاهر بن عاشور : تفسير التحرير والتنوير : الدار التونسية للنشر : ١٩٨٤م : المجلد الأول : الجزء الأول : ص ٢١٥ ، ٢١٦ .
٣٩. (سورة البقرة : ٢)
٤٠. (سورة البقرة : ٢٣ - ٢٤)
٤١. (سورة القصص : ٤٩)
٤٢. (سورة هود : ١٣)
٤٣. (سورة يونس : ٣٨)
٤٤. جار الله الزمخشري : السابق : ص ٦٦.
٤٥. مصداقا لقوله تعالى { وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا (١٠٦) } (سورة الإسراء : ١٠٦)
٤٦. محمد الطاهر بن عاشور : السابق : ص ٢٤٦.
٤٧. سيد قطب : السابق : ١٨.
٤٨. (سورة البقرة : ٨ - ١٠)
٤٩. (سورة البقرة : ١١ - ١٢)
٥٠. (سورة البقرة : ١١ - ١٣)
٥١. محمد الطاهر بن عاشور : السابق : ص ٢٨٦.
٥٢. (سورة البقرة : ١٤)
٥٣. عبدالقاهر الجرجاني : دلائل الإعجاز : تحقيق محمد محمود شاكر أبو فهر : مكتبة الخانجي: ط١٩٨٤ : ص ٢٣٢ .
٥٤. ابن قتيبة : تأويل مشكل القرآن : تحقيق السيد أحمد صقر :مكتبة دار التراث : ط ١٩٧٣ : ص ٢٧٧ .
٥٥. (سورة البقرة : ٢٨ - ٢٩)
٥٦. محمد الطاهر بن عاشور : السابق : ص ٣٧٣.
٥٧. (سورة البقرة : ٢٦)
٥٨. جار الله المخشري : السابق : ص٦٥.
٥٩. الخطيب القزويني : الإيضاح في علوم البلاغة ، المعاني والبيان والبديع ، دار الكتب العلمية : بيروت : ص ٢٨.
٦٠. (سورة البقرة : ٢٦٠)
٦١. (سورة البقرة : ٢٥٤)

٦٢. (سورة البقرة : ٢٦١) ٦٣. (سورة البقرة : ٢٦٤) ٦٤. (سورة البقرة : ٢٦٥)
٦٥. جار الله الزمخشري : السابق : ص ١٥٠. ٦٦. (سورة البقرة : ٢٦٦)
٦٧. جار الله الزمخشري : السابق : ص ١٥١. ٦٨. (سورة البقرة : ٢٦٧)
٦٩. (سورة البقرة : ٢٦٩) ٧٠. (سورة البقرة : ٣٠) ٧١. (سورة البقرة : ٢٩)
٧٢. (سورة الإنسان : ١) ٧٣. (سورة هود : ٦١) ٧٤. (سورة الإسراء : ٧٠)
٧٥. (سورة الأنعام : ١٦٥) ٧٦. يمكن العودة إلى كتاب : أبي آدم لد.عبد الصبور شاهين.
٧٧. محمد الطاهر بن عاشور : السابق : ص ٣٩٩.
٧٨. للمفسرين آراء كثيرة في كيفية معرفة الملائكة بصفة الإنسان قبل خلقه يمكن العودة إليها. ٧٩. السابق : ص ٤٠٠. ٨٠. (سورة البقرة : ٣١) ٨١. (سورة البقرة : ٣٢)
٨٢. (سورة البقرة : ٣٣) ٨٣. (سورة البقرة : ٣٤) ٨٤. (سورة البقرة : ٤٠)
٨٥. (سورة الأعراف : ١٦٠) ٨٦. محمد الطاهر بن عاشور : السابق : ٤٨٢.
٨٧. (سورة البقرة : ٤٩) ٨٨. (سورة البقرة : ٩٣) ٨٩. (سورة البقرة : ٦٣)
٩٠. (سورة البقرة : ٦٥) ٩١. (سورة البقرة : ٧٢) ٩٢. (سورة البقرة : ٧٥)
٩٣. (سورة البقرة : ٧٩) ٩٤. (سورة البقرة : ٨٠) ٩٥. (سورة البقرة : ٩٤)
٩٦. (سورة البقرة : ١١١) ٩٧. (سورة البقرة : ١٣٥) ٩٨. (سورة البقرة : ٩٦)
٩٩. (سورة البقرة : ١١١) ١٠٠. جار الله الزمخشري : السابق : **ص٩٢** .
١٠١. (سورة البقرة : ١٢٤) ١٠٢. محمد الطاهر بن عاشور : السابق : ص ٧٠٦.
١٠٣. (سورة البقرة : ٢٦٠) ١٠٤. جار الله الزمخشري : السابق :ص ١٤٨ ، ١٤٩.
١٠٥. (سورة البقرة : ٢٥٨)
١٠٦. سعدية لكحل : الحجاج في خطابات النبي إبراهيم عليه السلام : رسالة ماجستير : جامعة مولود معمري تيزي وزو: الجزائر : ص ٩١. ١٠٧. (سورة البقرة : ٢٨٤)
١٠٨. (سورة البقرة : ٢٨٥) ١٠٩. (سورة البقرة : ٩٣) ١١٠. (سورة الأحزاب ٧٢)